مسافرة إلى..

قصة: وفاء الخطيب*

بينما شريط الذكرى يستعرض لي مدناً ومحطات ووجوهاً كثيرة، حطت طفلة على أكمة ورد وهي تبتسم لي.

فرح قلبي بها وأنا استعد لتلقي لقطة أخرى من الشريط. لكن الطفلة تسمرت في مكانها وضحكتها الحلوة البريئة لا تفارقها.

قالت: ها أنذا تعالي!

سرت قشعريرة ناعمة في جسدي. رفعت يدي أتحسس الخدر الذي أحدثته قبلة تلك الفراشة المشمشية اللون المطرزة بالليلك، التي طارت نحوي منذ يومين على شكل غيمة، ثم بدأ حجمها يتقلص كلما اقتربت مني، حتى صارت تلك الفراشة.

لم يخطر ببالي -قط- بسبب إرهاقي المتواصل طوال اليوم، أن أربط بين المشهدين، مع أنني حدست أن شيئاً ما أو نهاية غير متوقعة سوف تحدث بعد أن حاول زوجي صبيحة ذلك اليوم أن يلذع مكان القبلة بالسيجارة دون أن أشعر بأي ألم.

حاولت أن أستجمع شتاتي بينما الطفلة تلوح لي ببعض الورود. ولما حاولت تجاهلها، نادتني بصوت عذب:

- تعالي، إنني انتظرك!
- لماذا؟
- سنذهب معاً..
- إلى أين؟
- إلى مكان ترتاحين فيه.

اعتراني إحساس مبهم بأني في رحلة سياحية، وأنني ألتقي هذه المخلوقة العجيبة في أحد القطارات. سألتها:

- دون عائلتي؟

* قاصة من سورية.

- بالطبع.
- حتى الأولاد؟
- أنت وحدك..
- لا أستطيع الذهاب دونهم.

شيء من الرهبة أيقظ بعض وعيي، جعلني ألوم نفسي لأنني تماهيت في الكلام مع هذه الطفلة. ورحت أتساءل عمن تكونه، ومتى ستفارقني لأنعم بالنوم قليلاً قبل مغالبة النهار.

- من تكونين؟

سألتها

- أنا الفراشة!

اقشعر بدني هذه المرة بخوف حقيقي.. حتى أنني شعرت باهتزاز الفراش والوسادة. يبدو أني بحق أمام مصيبة. قلت:

- دون أولادي لا أستطيع مرافقتك؛ ما زالوا بحاجتي. أرجوك اتركيني بحالي!
- لن تبقى إلا الذكريات.
- ما هذا الكلام؟ أعوذ بالله! أرجوك دعيني وشأني..
- بل ستذهبين..

قالت ذلك بعتب لا يخلو من الجزم.

- إلى أين ستمضين بي؟
- إلى مكان آمن، تتخلصين فيه من مطاردة أشباح الوهم..
- أنا لا أطارد شيئاً ولا أحب أن أطارد، أريد أن أنام.
- وإذا قلت لك إنني لن أذهب قبل أن أقنعك بالرحيل؟
- رحيل الى أين؟ إلى الموت؟
- لا.
- إلى نوم أهل الكهف؟
- لا هذا ولا ذاك. لا عليك، استمعي...

لكنني قاطعتها:

- لا أريد أن أسمع شيئاً. أنا مضطربة ومشوشة؛ لهذا لن أتخذ أي قرار وأنا على هذا الحال من الهذيان.

ثم تساءلت: لعلي في كابوس أو حلم ثقيل! حاولت أن أفتح عيني، فلم أفلح؛ لكنني تمكنت من تحريك أطرافي؛ إذن أنا في ورطة! أسمعها تأمرني:

- استمعي إلي جيداً، احملي جميع ذكرياتك.. طلباتك.. آلامك.. أحلامك وأحلام أبنائك.. لملمي خيوط الأخطاء من الثياب وتزنري بها، فهي تخفف الهموم أو توضحها.
- ما هذا الكلام يا ربي؟!

ثم فكرت بأن أهادنها في الكلام لعلها تطمئن إلي وتستجيب لتوسلاتي وترحل. سألتها:

- هل أكتب كل هذا على ورقة؟ أم...

ولم تدعني أكمل حين تأهبت أستفسر، وكنت أتصبب عرقاً، عن إمكانية تسجيل كلامي على قرص مرن، لأنه الأقدر على تقديم مضمونه صوتاً وصورة. استطردتْ وكأنها قرأت أفكاري:

- كل ما تريدين تذكاره اكتبيه على ورقة.. صوريه.. جدوليه في ذاكرتك، المهم أن تقدمي نفسك بوضوح وصدق.

رددت كلامها بشيء من الوجل:

- بوضوح وصدق. حسناً! ولكن هل تعلمين أنني، وعلى الرغم من إعيائي، مضطرة لمحاورتك وأنا غير مستعدة الآن للقيام بأية مغامرة؟ أرجوك

دعيني أرتاح قرب أبنائـي! وكل ما أتمناه في هذه السـاعة المتأخرة من الليل هو النوم لبضع ساعات قبـل أن يبدأ تعب النهار. لـدي فكرة: ما رأيك أن نكمل حديثنا غداً؟

أجابت:

– سـأمهلك مدة أسـبوع، بإمكانـك أن ترتبي خلالها أمورك كلها، ولسـوف آتيك بعد انقضائها لأمد جسراً وأصطحبك الى الضفة الأخرى.

صحت بها:

– أيـة ضفـة تقصديـن؟! أرجـوك ارحميني ودعيني وشأني!

وهممت أن أبكي. أجابتني:

– لا تحزني! سوف يرافقك كل ما ترينه جميلاً فـي حياتك، ويطوف بك بين الفينة والفينة كل من تحبين. نامي الآن واسـتعدي غـداً لتدوين كل ما اتفقنا عليه. لا تطيلي الشرح، أوجزي؛ فأنا لا أحب التفاصيل. لكـن عليك انتقاء العناوين بعناية، فهي تهمني كثيراً. كما أوصيك أن تشـردي في الفراغ.. في كل الوجود.. ثم أمعني النظر في نقطة واحدة، لا تحيدي عنها لمدة سـاعة.. ساعة فقط بتوقيتكم الأرضـي. بعد ذلك سـتعلمين أن رحلتك لن تكون عسيرة أبداً.

تذكرت أنني سـمعت ما يشبه هذا الكلام من قبل.. منذ سنين طويلة.. ربما منذ مئات السنين.. أو آلافهـا.. وبدأ ما يشـبه الضبـاب يلفني. لكن ابتسـامة تلك الطفلة تحولتْ فجأة إلى برق أظهر لهنيهة مشـهداً سحرياً سـبحتْ فيه أجرام ملونة ومجرات كثيرة، فشـعرت بأن وزني أخذ يتناقص، وبأنني أطير.. أطير فوق قوافل من الجمال والخيل، نُقشتْ على ظهورها حروف عربية.. يسوقها بعض الصبيـة، بطريقـة تمكنهم من قـراءة الكلمة التي كانـوا يتفقون عليها. وأعتقد أن تسلسـل الكلمات جاء مطابقاً للتسلسل الزمني لمعانيها، حيث عبّرتْ جميعها عن أحداث وأشخاص لهم تأثير كبير على نمـط حياتنا. ثم حط بي الطيـران فوق قمة جبل جمعت أقواماً تحلقـوا على حديث ممتع، التقطت أذني بعضه بشوق مبهم.

تنحنحتْ ثم قالت بخبث:

– ها! هل أعجبتك هذه المقدمة؟

لم أملك إلا رزانة الصمت أمام سـؤالها الكبير في هذا الجو السـحري. لكنهـا تجاهلت عجزي، وسألتني بمحاباة:

– مـا رأيك الآن أن أغني لـك قليلاً كي تنامي بهدوء؟ لا تنسي موعدنا بعد أسبوع! إلى اللقاء!

شـدت بغناء أحسسـته يطهرنـي.. يجلوني.. يكشـف أثلام روحي. ثم بدأت تغيب، لأعدو بخفة إلى حضرة النوم. لكنني بعد دقائق.. دقائق فقط.. اسـتيقظت لأشـعل النور وأقبل أبنائـي وزوجي، وأذهب إلى حجرة أخرى لأبدأ بتسطير ما أمرتني، فما وجدت خيراً من شكل الرسائل.